

هروب المراهقين من البيت العائلي

سهيلة تاتي- قسم علم الاجتماع-جامعة الجزائر 2
طالبة ماجستير
وصحفية بالتلفزيون الجزائري

من خلال التحقيقات والروبورتاجات الميدانية المنجزة في إطار الحصة التلفزيونية بعنوان "الحقبة البيضاء" اتضح أن الفئة العمرية الخاصة بالمراهقين تستوجب دراسة سوسولوجية تتطلبها آنية الظروف السوسيو-ثقافية التي يعيشها مجتمعنا.

واحد من بين أهم المواضيع المتناولة كان "صعوبة التعامل بين الأولياء والأبناء". كتحديد أدق للموضوع المختار نقصد بالأبناء هنا هم أولئك الذين تجاوزوا مرحلة الطفولة بدخولهم مرحلة المراهقة.

يتحول المراهق من كائن بيولوجي تحت الرعاية التامة للأولياء؛ إلى طفل محاط بالحماية المطلقة من طرفهما دائما إلى كائن اجتماعي تبدأ لديه عملية التنشئة الذاتية والتي تنمو بمشاركته تجارب الحياة وتفاعلاتها مع الآخرين.

غير أن مراهقة القرن الحالي هي غير تلك التي عاشها أولياء المراهقين الشباب في السنوات الماضية؛ ومن ثمة جاءت الصعوبة في كيفية التعامل بين الوالدين و أبناءهم المراهقين الذكور منهم و الإناث؛ حيث أن عدم استطاعة كلا الطرفين فهم بعضهما البعض أد إلى نوع من التصادم في كيفية التعامل و التفاهم... النتيجة كانت نفور الطرفين من بعضهما البعض.. مما أد إلى ضرورة إلى عدم القدرة على إيجاد قنوات للاتصال بينهما؛ لكن الحقيقة التي لاحظناها أثناء اتصالاتنا المتكررة بالإباء و المراهقين المستجوبين وكذلك خلال التسجيل معهم؛ هي محاولة كل طرف فرض نفسه على الآخر بإتباع الطريقة التي يجدها انسب بالنسبة له؛ فالأب الأمر وإلام الناهية وبينهما المراهق و المراهقة المتمردين.

هذا القدر من المعلومات الأولية دفعنا إلى وضع جملة من التساؤلات غاية في الأهمية هي كالتالي.

- إلى أي مدى يمكن اعتبار المراهق لا يزال صغيرا في نظر الأولياء؟

- ما مدى فتح الوالدين المجال للمراهق لممارسة حقه في المشاركة وإبدائه رأيه في المواضيع الخاصة؟

- ما مدى استماع الوالدين لمشاكل المراهق وانشغالاته؟

بناء على هذه التساؤلات الخاصة بالأولياء يأتي حتما التساؤل الخاص بالمراهق؟

- ما مدى تفكير المراهق في ترك البيت من عدمه وما أسباب ذلك؟

إلى زمن ليس بالبعيد لم نكن نسمع عن هروب المراهقين من البيت العائلي ، وإنما كان يترك من طرف شبان يصلون إلى سن هم فيه إلى حاجة للعمل.

في هذا العرض تم اختيار ثلاث حالات لمراهقين شابين وشابة؛ فئة سنهم ما بين 14 و 17 سنة؛ ينتمون إلى بيئة اجتماعية تختلف من حضرية إلى ريفية ... و وسط عائلي يختلف من أسرة إلى أخرى... غير أن هناك قاسم مشترك يميز اسر الثلاث حالات و هو الصراع الذي يعيشه الآباء مع أبنائهم في ممارستهم للسلوكيات الحياتية اليومية.

إن الحالات التي سوف أعرضها تتطرق إلى بعض الظواهر المرضية التي تبدأ أما من الأسرة أو من المدرسة أو الاثنين معا والمراهق في مراحل عيشه الأولى لعالم المراهقة الجديد عليه؛ لتأتي في مراحل لاحقة تأثيرات أخرى من المؤسسات الاجتماعية المختلفة في المجتمع.

- عرض الحالات:

قبل أن نتعرض إلى عرض الحالات نود أن نشير إلى أمور علمية مهمة في التعامل مع مختلف الظاهر الاجتماعية والتي تتطلب منا أن نقف عليها على الأقل ، فرغم أننا قد تعاملنا مع حالات كثيرة (تمثل أمراضا نفسية، اجتماعية) تختلف فيما بينها في الأسباب والنتائج أحيانا ، وأحيانا أخرى تتشابه فيما بينها بحكم أنها تقاسي على العموم نفس الأسباب الأسرية والاجتماعية والنفسية، فإن هذه الأخيرة (الجانب النفسي) التي يظهر للعيان أن له أسبابا وآثارا نفسية بحتة ، وله علاقة بجوانب ذاتية أو وراثية تجعل الفرد يقوم بسلوك قد يتنافى و أعراف وعادات وتقاليد المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه ، لكننا لما تعمقنا أكثر في فهم مختلف الحالات التي قابلناها وقمنا بتصويرها رغم الصعوبات التي واجهتنا في الوصول إليها، فقد وجدنا أمرا هاما أكثر عمقا ينبغي أن يتعرف عليه القارئ ، كون أن مختلف المظاهر التي تظهر وكأنها جوانب نفسية بحتة هي في أغلب الأحيان وراءها أو لها علاقة بالجوانب الاجتماعية ، وبالتالي لا يكفي الاستناد بالأخصائي النفسي، لأن يتعذر فهم الخلفيات الاجتماعية والثقافية التي بنيت عليها العلاقات الاجتماعية، مما تصبح الحاجة الماسة إلى ضرورة الاستناد بالأخصائي الاجتماعي خاصة (المتخصص في مجال علم الاجتماع العائلي والطفولة والعمل الاجتماعي) لفهم الأسباب الخفية والنتائج التي تظهر في أفعال أو سلوك الأفراد مهما كان جنسهم أو سنهم أو مستواهم، أو طبيعة تدينهم، أو سكنهم، أو مكانهم الجغرافي...لما لهمن علاقة مباشرة أو غير مباشرة بطبيعة المحيط الاجتماعي والأسري الذي يعيش فيه الفرد، مع محاولة ترشيده وتوجيهه و كذا أفراد محيطه

الأسري ومساعدتهم للخروج من المشاكل التي يعانون منها وفق خطوات علمية ومهارات فنية قد اكتسبها المختصفي " علم الاجتماع العائلي والطفولة والعمل الاجتماعي"، هذا بالإضافة إلى تعاون هذا الأخصائيا لاجتماعي مع أطراف أخرى إن اقتضت الضرورة (سواء رسمية أو من المجتمع المدني) على إيجاد الحلول التي تعيد ثقة الأشخاص بأنفسهم وبأسرهم ومجتمعهم ودولتهم ليعيشوا في أمان واستقرار فيصبح لهم سلوك اجتماعي ايجابي مبني على قيم وممارسات حضارية تساعد على الحفاظ على مواظنته ووطنيته ويدفع بعجلة التنمية الاجتماعية والاقتصادية للبلاد.

الحالة الأولى:

- مراهق يبلغ من العمر 14 سنة، من ضواحي مدينة الشلف، هو الابن البكر في عائلته، يدرس بإحدبا كماليات المدينة، لجأ إلى الهروب من البيت إلى وجهة مجهولة، وحسب ما جاء في الرسالة التي وصلت البرنامج اتضح انه لا الأب ولا الأم فهما سبب ترك ابنهما البيت أو بالأحرى فراره منه؛ أما من خلال اتصالنا بهما عبر الهاتف وسؤالنا عن ظروف هذا الهرب فقد قيل لنا انه لا شيء ينقصه في البيت وانه يعيش حياة عادية في الدار والمدرسة.

- إن غياب هذا المراهق دام أكثر من ستة أشهر لتجده مصالح الدرك الوطني بولاية بشار وتعيده بعدها إلى أهله في الشلف.

في اللقاء الذي جمعنا بالمراهق جاء في شهادته انه كان يعيش ضغوطات نفسية تمارس عليه من طرف الوالد حيث كان هذا الأخير يجبره على جلب الماء من بئر تبعد عن البيت في كل مرة يعود فيها من المدرسة ولعدة مرات في اليوم؛ من جهة أخرى يقول المراهق انه يحب الدراسة ويتمنى أن ينجح في المستقبل في الدراسات العليا لأن سوء معاملة الأساتذة له وبالأخص أساتذة اللغة الفرنسية التي كانت تشتتته بسبب ضعفه في هذه المادة؛ جعله يتهاون أكثر مما أدى إلى رسوبه.

إن ثقل الضغط النفسي الذي عاشه هذا المراهق وعدم تفهم المحيطين به لحالته دفعه إلى الهرب من البيت ليس كرها لوالديه أو مدرسته وإنما هو هروبا من ظروف أفقدتها لإحساس بقيمته الذاتية وسط عائلته ووسط مدرسته؛ إلا انه لم يجدها كذلك بفراره من البيت.

فحسب شهادته دائما يقول: "لقد عشت أياما جد صعبة تعرضت فيها للجوع والمبيت في الشوارع؛ للضرب؛ مخالطة رفقاء السوء؛ تعلمت السرقة؛ التسول؛ التدخين؛ وحتى المخدرات، لكنني عرفت جيدا ماهو العيش بعيدا عن الأهل انه أمر صعب جدا لا يعوضه أي شيء.. تجربة مريرة لن أعيدها أبدا...".

الحالة الثانية:

حالة أخرى لمراهق من الجزائر العاصمة؛ يبلغ من العمر 17 سنة. وجد في هروبه من البيت المنفذ الوحيد للتعبير عن رفضه لطريقة معاملة والديه له باعتباره غير قادر على اخذ قرارات بنفسه وتحمله للمسؤولية من دون إعطائه فرصة إثبات ذلك حسب رأيه طبعاً... حيث لم يكن يسمح له بمرافقة أصدقائهم إلى أي مكان كان رغم محاولته العديدة والمتكررة وإحاحه على ذلك خاصة في المناسبات؛ إلأن جاء اليوم الذي قرر فيه ترك البيت والهرب مع مجموعة من الأصدقاء ليترك والديه في حيرة كبيرة وأليمة يبحثون عليه في كل مكان دون جدوى؛ إلى درجة انه لم يفكر حتى في الاتصال بهما.

لقد كان هروب هذا الشاب واختفائه لمدة طويلة من جهة واتخاذها قرار العودة ثانية إلى البيت من جهة أخرى بعد أنعاش مغامرة أكسبته بعض التجارب الشبابية؛ وها هو يبهرن لوالديه قدرته على تحمل المسؤولية عندما يتعلق الأمر بشخصه.

الحالة الثالثة:

هي حالة خاصة بمراهقة من أعالي جبال تيزي وزو شابة 17 سنة هو عمرها؛ تعيش في وسط أسري كل اهتماماته لا يخرج عن القيام بالشؤون العائلية والمنزلية... لتجد نفسها وحيدة بين أفراد أسرة يكبرونها سناً: من جدات وعمات وخالات إلأعمام وأخوال؛ الكل لايعير أي اهتمام لشابة تحلم بحياة أفضل، فالوالدة لا ترى في ابنتها سوى المساعدة لها في شؤون البيت من طبخ وغسيل... أما الوالد فلا تتحدث إليها نادراً.

ذات يوم وفي ساعة مبكرة من الصباح ودون أن يشعر بها أحد تقرر الشابة المراهقة الهرب من البيت إلى وجهة غير معروفة ليعثر عليها بعد سنة في احد المراكز بالجزائر العاصمة.

بالرغم من أن التربية التي تتلقاها الفتاة في مجتمعنا تضع ضوابط وقواعد صارمة لا يجوز لها تخطئها ولا الخروج عن الأعراف والتقاليد مهما كان؛ خاصة إن تعلق الأمر بالمجتمع القبائلي؛ إلأن هذه المراهقة أحدثت قطيعة مع كل هذا وفرت من البيت غير مبالية لما سيحدث لها ولأهلها.

إن كل المحاولات لمقابلتها بعد رجوعها إلى البيت لم تفلح بسبب الرفض القاطع لوالدها بالسماح لنا بإجراء مقابلة معها حتى نعرف منها لماذا هربت وكيف كانت ظروفها وهي بعيدة عن أهلها.

خاتمة:

هي نماذج ثلاث لمئات الحالات التي وصلت للبرنامج جاءت بنفسها أو عبر رسائل يطلب فيها الأولياء مساعدتهم في رحلة بحثهم عن أولادهم الهاربين من البيت؛ ودون أي شك هي أيضا نماذج لآلاف الحالات التي يعرفها المجتمع ككل التي ينبغي أن تتخذها الدراسات الاجتماعية كمواضيع بحوث بمتغيرات جديدة في ضوء التغيرات الاجتماعية والثقافية المعاصرة.

لقد كانت الأسرة وما تزال الطرف المهم في عملية التنشئة الاجتماعية بالنسبة للطفل كونها المجتمع الإنساني الأول الذي ينمو فيه الطف؛ وهي تنفرد بوظيفتها هذه لسنوات طويلة من حياته مما يجعلها حاسمة في بناء شخصيته وتكوينها؛ غير انه و مع بداية فترة المراهقة سيشارك الأسرة في وظيفتها التنشئية مؤسسات اجتماعية أخرى لها تأثيرها على المراهق.

فعملية التنشئة الاجتماعية تتضمن التفاعل والتغير؛ والمراهق في تفاعله مع أفراد جماعته (الأسرة والمجتمع) فانه يأخذ ولعل المهم في هذا أو ما أجده الأهم انه في مقدوره أن يعطي؛ وبالإستماع إليه ووضعها في مكانة لا تنقص من قيمته الذاتية؛ فإننا حتما سنبنى جسرا من الترابط والتفاهم بين الآباء والأبناء ومع المحيط الخارجي.